

مصر حلقة الاتصال الثقافي بين الشرق والغرب

امتازت مصر على كثير غيرها من مراكز الحضارة في العالم بأنها جمعت في حضارتها بين أمور ثلاثة ، هي القدم ، والاستمرار ، والاتصال المنتظم بالعالم الخارجي في الشرق والغرب . فأما عن القدم فإن مصر في إجماع الباحثين من أقدم مواطن حضارة البشر التاريخية ، إن لم تكن أقدمها في كثير من ضروب المدنية . بل إن بعض عناصرها الأولى ترجع إلى عهود طويلة قبل فجر التاريخ . وقد بدأت فيها الزراعة وما صاحبها من استقرار في القرى ، وانتقال من الحياة القبليّة المنقلة إلى الحياة المدنية المستقرة ، حول الألف السادسة أو الخامسة قبل الميلاد أي منذ سبعة آلاف سنة على وجه التقريب . ثم بدأ التاريخ المكتوب في مصر بعد ذلك بألفي سنة ، أي في أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد .

وأما عن الاستمرار فإن التاريخ المصري من حيث اتصال حلقاته يعتبر أطول التواريخ . ومع أنه حدثت فيه فترات انقطاع ، كعهد الاقطاع الأول بين الدولة الفرعونية القديمة والدولة الوسطى ، وكعهد الاقطاع الثاني بين الدولتين الوسطى والحديثة ، وعهد الاضمحلال الأخير بعد عصر الفراعنة ، وعهد غزوة الأتراك وما تلاها ، فإن تلك العهود جميعاً إذا ما أضيف بعضها إلى بعض لا تزيد على جزء محدود من تاريخ المدنية والحضارة في مصر ، بل لا تكاد عهود الركود والاضمحلال في تاريخنا الطويل تتجاوز بضعة عشر قرناً على أوسع تقدير ، وهي نسبة ضئيلة إذا ما قيست بعهود الركود في تواريخ غيرنا من الأمم . وقد استطاعت هذه البلاد أكثر من مرة أن تنهض بعد اضمحلالها ، وأن تمجدد التاريخ بعد عفاؤه ؛ فاحتفظت بمكاتها في عالم المدنية والثقافة خلال ثلاثة أرباع تاريخها أو ما يقرب من ذلك ؛ كما استطاعت رغم أدوار الصعود والهبوط أن تحتفظ على مر الأيام بطابعها الحضاري العام ، وأن تنمي ثقافتها بما تحييه من تراثها

القديم ، وما ينبعث فيها من روح جديد يترع إلى الخلق والابتكار حيناً ، وإلى التجديد بالاقتراب من العالم الخارجي حيناً آخر .

وقد كان اتصال مصر بالخارج قديماً قدم الحضارة في مصر ؛ بل إن مصر لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن غيرها من الأمم ، وإن كانت الصحارى على الجانبين والبحار في الشمال والجنوب الشرق قد نظمت ذلك الاتصال ، وجعلته في حدود معينة ، سمحت لمصر أن تأخذ عن الخارج ما ينمى حضارتها ، ويعزى ثقافتها ، ويعينها على أن تكون واسطة بين الشرق والغرب ، ولكنه في الوقت ذاته لا يطفى على روحها ، ولا يطمس معالم مدينتها المميزة . كذلك لم يكن اتصال مصر بالخارج واحداً في كل العهود ؛ بل هو في الواقع كان مرتباً بعاملين : أولهما سعى مصر لأن تتصل بالعالم المجاور ، وأن تبادل أهله سلع التجارة وأوان الفكر والثقافة . وثانيهما تلك الصلات العالمية التي كان لابد لها أن تسلك طرقاً معينة رسمتها الطبيعة بحيث تمر في أرض الزاوية التي يتصل فيها اليابس ويكاد يقترن الماء . والناظر إلى تاريخ الصلات العالمية بين الشرق والغرب يستطيع أن يميز في غير صعوبة بين عصرين كبيرين ، تفصل بينهما نقطة تحول خطيرة اتفقت وغزوات الإسكندر . فقبل عهد الإسكندر كانت هناك عدة مناطق لكل منها حضارتها الخاصة ، في الصين ، والهند ، والشرق الأدنى الآسيوي ، ومصر ، وبلاد الإغريق . وكانت كل من هذه المناطق تكون عالماً حضارياً متميزاً ، لا يتصل اتصالاً مباشراً إلا بالعالم المجاور له ؛ كاحتكاك مصر بالشرق الأدنى الآسيوي ، أو بلاد الإغريق بمصر ، أو الشرق الأدنى ببلاد الإغريق . فلما جاء الإسكندر وقام بحملته التاريخية من بلاد الإغريق إلى الشرق الأدنى ثم مصر ثم حدود بركة ، ثم عاد إلى مصر ، ومنها إلى الشرق الأدنى وإيران وتركستان الغربية وحدود تركستان الصينية ، ثم اتجه نحو الهند ، ثم عاد إلى الشرق الأدنى وقضى نحيبه ؛ كانت هذه أول حملة احتكت فيها مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض احتكاكاً مباشراً ، ترك أثره وطابعه الدائم في حياة الناس وأفكارهم ؛ وكانت هذه أول حرب « عالمية » بالمعنى المعروف ؛ لأنها امتدت من البحر المتوسط إلى حدود الصين ، وترتب عليها ما يترتب عادة على أمثال هذه الحروب الواسعة ؛ فتقاربت أجزاء العالم ، وظهرت « العالمية » ، أو بعض بوادرها على الأقل ، ووضعت أسس الاتصال العالمي ،

فتحت الطرق ، وسعى عليها التجار والملاحون في البر والبحر ، وتبادل الناس السلع والأفكار بين مناطق لم يكن بعضها يعرف بعضاً قبل عهد الإسكندر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة .

وقد يعيننا بصفة خاصة أن نلاحظ ما نشأ عن هذه العالمية ، وما صحبها وترتب عليها من ثورة فكرية لا تزال ناسم أعقابها وآثارها حتى اليوم ؛ وقد تمثل ذلك على وجه الخصوص في أن الفكر الديني في الشرق الأدنى اتجه اتجاهاً جديداً كان له أثره الدائم في الحياة الدينية والروحية ، وما داخلهما واتصل بهما من فكر وثقافة ، والذي يدرس تاريخ الأديان في الشرق الأدنى لا يملك إلا أن يلمس الفرق بين اليهودية من ناحية ، والمسيحية والإسلام من ناحية أخرى . فقبل عهد الإسكندر (القرن الرابع ق . م .) لم يكن الناس مهئين لأن يتقبلوا الأديان « التبشيرية » ، أى التى يفرض على من يؤمن بها إبلاغ الرسالة إلى غير المؤمن ؛ وعلى هذا جاءت اليهودية غير تبشيرية ، ولم تنتشر في العالم ؛ ومع أن اليهود ساروا في الأرض وانتشروا فيها انتشاراً عنصرياً ، فإنهم لم يذيعوا ثقافتهم ولم يبشروا بدينهم بين الناس ، على حين جاءت المسيحية والإسلام بعد الإسكندر دينين تبشيريين ، دعت الأولى إلى المحبة الشاملة ، ودعا الثانى إلى الأخوة العالمية ، وانصرف كل منهما عن العنصر والجنس ، وعن الوطن والإقليم ، فانتشرا وبشر بهما الأنصار ونقلوا ما داخلهما من فكر وفلسفة ، ومن لغة وثقافة ، إلى الشرق أو إلى الغرب ، أو إلى الاثنين معاً .

أحدثت حرب الإسكندر إذاً ثورة فكرية في بلاد الشرق القديم ، ووجهتها وجهة ثقافية جديدة . وكانت مصر أسبق بلدان هذا الشرق سيراً في الاتجاه الجديد ، وأبعدها إغراقاً فيه . ولعل ذلك قد تمثل بصورة جلية فيما استقبلت به مصر الفرعونية الديانة اليهودية واليهود قبل عهد الإسكندر بألف سنة أو نحو ذلك ، وفيما استقبلت به المسيحية والإسلام بعد ذلك بقرون ؛ فقد طاردت مصر اليهودية واليهود على نحو ما هو معروف ، على حين أنها اعتنقت المسيحية ودافعت عنها وكأخت من أجلها ضد اضطهاد أباطرة الرومان الأولى ، ثم اعتنقت بعد ذلك الإسلام واستمسكت به وتعمصت له حتى يومنا هذا .

ومع ذلك فلم يكن الانقلاب مقصوراً على شؤون الدين في حدوده الضيقة ،

وإنما هو قد شمل الثقافة بمعناها الأوسع . وقد ابرز ظهور العالمية والاتصال بين الشرق والغرب قيمة موقع مصر الجغرافي ، كحلقة الاتصال وحجر الزاوية في اتصالات العالم . وكانت مصر قد استأهلت لأن تكون واسطة الثقافة بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ؛ بل عقد الاتصال بين الأجيال التي لا حَقَّ بعضها بعضاً على مر الزمن فصر بلاد غنية ، عريقة في الحضارة والمدنية ، ذات ثقافة قديمة امتازت كما ذكرنا بالعراقة والاستمرار ووثيق الاتصال بغيرها من البلاد والشعوب . وبديهى في معرض الوساطة الثقافية ونقل نتاج الفكر وتراث العقل أن يعين ذلك كله مصر على أن تحتضن ألوان الثقافة التي انتهت إليها أو مرت بها ، وأن يغذيها بما يحفظ لها حيويتها وإن صبغها بصبغة جديدة ، قد تباعد قليلاً أو كثيراً بينها وبين ما كانت عليه قبل أن تصل أرض مصر . ولولا ما كانت عليه مصر من مدنية وحضارة عاشت على الزمن ما استطاعت بلادنا أن تحتضن ما احتضنت من ثقافات أجنبية ، ولا أن تنقل تلك الثقافات إلى أهل الشرق حيناً وأهل الغرب حيناً آخر . فكما أن فاقد الشيء لا يعطيه ، كذلك الجاهل لا يمكن أن يكون ناقل علم أو ناشر معرفة أو رسول ثقافة . ولقد رأينا مصر بعد عهد الإسكندر تحتضن ثقافة الإغريق وعلمهم ، وتحفظ تراثهم العقلي بعد أن مات في بلاد الإغريق نفسها أو كاد ، وصارت الإسكندرية مركز الثقافة الإغريقية في العالم ، حيث تزوج الفكر الإغريقي بالفكر المصرى ، فظهرت فلسفة دينية جديدة ، وعلم وفن جديدان . وكانت الإسكندرية ومصر عامة أكثر ملاءمة من حيث الموقع الجغرافي ، فانتشرت الثقافة الجديدة على نحو لم يكن ليتاح للفكر الإغريق لو لم يهبأ هذا المركز الجديد الذى يلائم الانتشار والاتصال بالبر والبحر على السواء ، والذى هو ملتقى أهل المناطق الحارة وما يتصل بها شرقاً وأهل المناطق المعتدلة وما يتصل بها غرباً . والحق أن فضل مصر والإسكندرية في تغذية الثقافة الإغريقية وإذاعتها ، وكذلك في حفظها على الزمن للأجيال اللاحقة فضل لا ينكر . وقد تكررت هذه القصة في صورة جديدة عند ما ظهر الإسلام ونبت في بيئة صحراوية كانت صالحة للاستلham والابتكار ، ولكنها لم تكن لتصلح للتغذية والتربية والإنماء ؛ فاحتضنت مصر الدين الجديد والثقافة الجديدة ، وغذتها من تربتها ولبنانها ؛ واتخذ الإسلام والثقافة العربية مركزاً جديداً ، ولكن ليس في الإسكندرية ذات البيئة البحرية

والاتصال الشمالى ؛ وإنما فى القاهرة التى هى خليفة هليوبوليس القديمة مدينة العلم والنور ، حيث احتكّت أفكار المصريين منذ القدم بأفكار غيرهم من أهل المشرق . وهكذا أصبحت مصر والقاهرة خاصة قاعدة الثقافة الجديدة ومعقلها ، لا سيما فى عهود اضمحلال البلاد العربية ذاتها ؛ فظهرت فى مصر علوم الإسلام وفنونه ، وجانب كبير من فلسفته وتصوفه . ولولا أن قيّض الله للإسلام هذا البلد الأمين المضيف ، ذا التراث العقلى والفنى ، وذا الموقع الجغرافى المتصل ، ما كان له ذلك الذبوع ، ولا كانت لثقافته العربية تلك المكانة وذلك الاستمرار .

والغريب فى أمر مصر وعلاقتها الثقافية — أو لعله ليس غريباً — أن التاريخ أعاد نفسه أكثر من مرة ، وإن اختلفت صور ذلك من عصر إلى عصر . وكانت هذه الأرض الطيبة على الدوام بلداً مضيفاً يرحّب بالوافدين إليه فى طلب الثقافة والمعرفة ، واللاجئين إليه فى طلب الرزق والأمان ، من حملة العلم أو دعاة الفكر . ففى مصر القديمة الفرعونية كانت هليوبوليس مقصد الوافدين من البلدان المجاورة ؛ ولم تقتصر اتصالاتها على بلاد المشرق ، وإنما وفد إليها فى أواخر العهد الفرعونى كثير من أبناء الإغريق الذين تعلموا ونقلوا كثيراً عن مصر القديمة . ثم فى العهد البطلمى والرومانى غدت الاسكندرية مركز العلم والنور والرفان ، قصدها العلماء والباحثون وأهل الحكمة والأدب والفن ، فأوتهم الدولة وأجرت عليهم الأرزاق من خيرات مصر . ثم فى العهد الإسلامى تكررت هذه الصورة فى لون جديد ؛ فظهر الأزهر وأروقته التى جمعت العلماء والمتعلمين من مشارق العالم الإسلامى ومغاربه ؛ وجادت مصر فى كرم وغير من على أبناء تلك البلاد جميعاً ، لا لبحيراتها وطيباتها فحسب ، بل كذلك بغذاءها الروحى والعقلى الذى ما كان ليتيحاً فى بلد غير مصر . حتى إذا ما جاء العصر الحديث وأخذت مصر تتصل بالغرب الجديد ، وتقتبس من ثقافته وحضارته ألواناً تضيفها إلى ما جمعت عن الماضى ، وتزواج بينها وبين تراثها المصرى والشرقى ، خرجت مصر على العالم بلون جديد من الثقافة المصرية العربية ، أو سمّها إن شئت الثقافة العربية المصرية ، وجادت مصر بهذه الثمرة الجديدة فى سخاء وفى غير من أيضاً على جاراتها القريبة والبعيدة . من أمم الثقافة العربية ؛ بل إنها لم تكتف فى ذلك بما قدمت للوافدين عليها من كرم الضيافة ، وإنما هى

قد سعت إلى تلك البلاد جميعاً بأبنائها ورسالتها تبعث بهم يحملون لواء الثقافة الجديدة ، ويطوفون بمشعلها في الشرق والغرب والجنوب .
 وقد لا يعيننا كثيراً أن نحاول تفسير ما أُجبلت عليه مصر في علاقاتها الثقافية من حب الأخذ وحب العطاء في غير تضيق وفي غير حساب ، ومن التأثير في العالم الخارجي والتأثر به في غير وجل ولا تردد ، بل من عدم التقدير والتقييد من جانبها إن هي أعطت وأثرت ، وقلة الحذر وعدم استشعار ما يسمونه مركب النقص إن هي أخذت وتأثرت . فقد يكون مرجع ذلك كله ما كانت ترتكن إليه من قوة ذاتية مستقرة ، وثروة ثقافية كامنة ، جعلتها تحس بأن ليس يضيرها الأخذ ولا العطاء ، وأنها مهما أخذت ومهما أعطت فذخيرتها من تراث العقل والفكر ، ورصيداها من مقومات الحياة مادية ومعنوية ، ليس مما يخشى عليه من التغيير والتبديل أو النقص والتبديد . كذلك قد يكون ذلك النهر العظيم الذي يفيض بالخير في كل عام ، وتلك التربة الطيبة التي تكاد تنبت كل الثمرات ، قد علمت المصريين كرم السجية وسخاء الطبع منذ استقرت بهم الحياة في وادي النيل ، فاشتقوا كرمهم من كرم الطبيعة ، وسخاءهم من سخائها . وقد يكون موقع مصر الجغرافي على مفترق الطرق هو الذي فطر المصريين على لطف المعاشرة وحب التأخي والمخالطة ، وهو الذي تطلب منهم جميل المعاملة وإكرام الوفادة إن هم أرادوا أن يستجيبوا لمقتضيات ذلك الموقع استجابة طبيعية لا تكلف فيها ؛ إذ لا يملك المقيم على مقرن الأرضين ومفرق البحرين إلا أن يقوم بدور المضيف للقدام وماير السبيل . وهكذا اعتاد المصريون أن يكونوا مضيفين ، وتبددت عنهم الريب والشكوك في الطارقين مهما يكن لونهم وثقافتهم ، فأعطوهم وأخذوا عنهم ؛ وكانوا في عطايتهم جوادين كرماء ، أعطوا مما تجمّع لديهم من تراث تليد هو من نتاج البيئة المصرية ذاتها ، وتراث طريف هو في أصله من نتاج البيئات المجاورة ولكنه غرس في أرض مصر فتغذى بلبانها واتخذ طابعها إلى حد يسير أو خطير . ثم إن المصريين لم يحسوا في يوم من الأيام بالخرج في أن يأخذوا عن غيرهم بعض ألوان الثقافة ؛ لأنهم كانوا في ذلك ككل كريم لا يتردد في الأخذ والقبول لأنه لا يتقاعد عن البذل والعطاء .

وعلى كل حال فهما تكن علة هذه الظاهرة في مصر والمصريين ، ومهما يكن مرحمها إلى أحد تلك الأسباب السالفة أو إليها مجتمعة ، فإن الذي هممنا الآن

هو أن نسجل ما ترتب على ذلك من أن مصر لعبت دوراً بالغ الخطورة في تاريخ الاتصالات الثقافية وانتشار الثقافة البشرية ، وأن هذا الدور كان مستنداً إلى دعامتين أساسيتين ، إحداهما ما أنتجته مصر ذاتها من ثروة عقلية ساهمت بها في تطور العلم والمعرفة والثقافة البشرية العامة . وثانيتها ما قامت به مصر للعالم من وساطة في النقل وتمكين للاتصال بين الشرق والغرب عن طريق موقعها الجغرافي . والذي يريد أن يفهم ماهية هذا الدور الخطير الذي لعبته مصر في تاريخ البشر الثقافي فهما عميقاً صحيحاً لا بد له أن يجمع بين هاتين الدعامتين في بحثه وألا يفرق بينهما بحال . وقد يكفيننا للتدليل على ضرورة هذا الجمع أن نورد هنا عدداً من الأدلة والأمثلة المختارة .

وللثقافة البشرية في عرف الباحث والمؤرخ نواح أربع أساسية ؛ يتصل كل منها بناحية من حياة الإنسان . فأما الأولى فناحية الروح وما يشبع نزواتها من عقائد وأديان ، ومن فكر ديني وفلسفة روحية . وأما الثانية فناحية الذوق والتذوق الحسي ، وما يجيب حاجاتها من فن منظور كالرسم والنحت والعمارة وغيرها ، أو مسموع كالغناء والموسيقى . وأما الثالثة فناحية النطق والتصوير والتعبير ، وما يتصل بها من لغة وأدب ، وفنون تتصل باللغة والأدب . وأما الرابعة والأخيرة فناحية العقل والتفكير العقلي ، وما ينتج عنهما من مشاهدات للطبيعة ودراسه للأشياء واستخلاص للحقائق والقوانين وتبويب للمعرفة في علوم وفنون لا تتصل بالروح والعاطفة وإنما تتصل بالطبيعة والعالم ، وما يحويان من قوى ومن أشياء . وهناك نواح أخرى وأفرع صغيرة من الثقافة والمعرفة البشرية العامة ، ولكنها تتصل من قريب أو بعيد بإحدى تلك النواحي الأربع الكبرى . وقد يبدو غريباً في هذا التقسيم أن نضع الناحية الروحية في رأس القائمة ، وأن تؤخر ناحية العقل إلى الذيل . ولكن هذا هو الترتيب الطبيعي والواقعي لما حدث في تطور ثقافة الإنسان . فقد لوحظ أن الإنسان القديم نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ؛ وأنه إذ رأى الطبيعة من حوله وحاول فهم الأشياء عمد إلى تفسيرها تفسيراً روحياً ودينياً ، فنسب إنبات الحب مثلاً إلى قوة غريبة لا يدركها وإن كان يؤمن بها وبربها ؛ وهو لم يحاول أن يفسر ذلك تفسيراً عقلياً ، تصدقه المشاهدة ويقبله المنطق ، إلا في دور لاحق من أدوار المعرفة . والواقع أن الإنسان لم يعمد إلى

إعمال فكره وإجهاد قوته العقلية في فهم الأشياء وإدراك حقيقتها إلا متأخراً نسبياً في تاريخ المعرفة البشرية . ولا يزال قسم غير ضئيل من شعوب البشر يتقاعد عن إعمال الفكر والعقل ، ويفصل فهم كثير من الأشياء على أساس رוחى هو أقرب إلى فطرة الإنسان . بل لا يزال إجهاد الفكر وتحكيم العقل عملية شاقة يتكاسل عنها الفرد في أرق المجتمعات والشعوب ، ولا يعمد إليها ويعتاد ممارستها إلا بعد كثير من التعليم والترويض والتهديب .

فأما ناحية الفن فقد ارتبطت منذ البداية ارتباطاً وثيقاً بناحية الروح ؛ وكثيراً ما سُخِّرَ الفن ، ولا سيما في أطواره الأولى ، لخدمة الدين وإشباع الحاجات الروحية والدينية للفرد والمجتمع . وكذلك الحال إلى درجة ظاهرة فيما يتصل باللغة والآداب والفنون الأدبية . ولم يسخر الفن والآداب في خدمة الناحية العقلية والإنتاج العلمى إلا بقدر محدود وفي العصور المتأخرة نسبياً من تاريخ الثقافة العامة .

لذلك كله كان من المستحسن عند الكلام على الثقافة العامة أن نبدأ بالناحية الروحية ، ثم ننتقل إلى النواحي الأخرى على التوالي ؛ لأن ذلك يكون أدعى إلى التمشي مع تطور الثقافة كما نعرفه اليوم . فإذا ما نحن علمنا أن مصر كانت من أقدم بلاد العالم مساهمة في بناء المعرفة وإنماء الثقافة البشرية ، وجب أن تمتاز ثقافتها القديمة في نواحي الروح والفن والآداب أكثر مما تمتاز في الناحية العلمية . ولا ينبغي إذناً أن تقاس الأمور عند تقدير ما ساهمت به مصر القديمة بنفس المقياس الذى نلتزمه عند ما نقيس ما تساهم به الأمم الحديثة في الفكر والثقافة . ويكفى أن نذكر أننا لو حاولنا أن نستعرض ما ساهمت به أمم أوروبا الغربية في إنماء ثروة البشر الثقافية خلال العصر الحديث والمعاصر لم نكد نجد إلا القليل مما يتصل بناحية الروح من الإنسان ، في حين ينصب أغلب التقدم على الناحية العقلية المتصلة بالعلم والتطبيق العملى . فالحالة هنا هي في جملتها عكس ما كانت عليه عند الأمم القديمة بصفة عامة .

ومع ذلك فقد يبدو أول الأمر أن مصر لم تساهم كثيراً في بناء الناحية الروحية من ثقافة البشر وإقامة دعائمها الأولى ، وإن كانت قد ساهمت فيما بعد مساهمة رائعة في نشر العقائد الشرقية ، وأهمها المسيحية والإسلام . ولكن الأمر اعمق من ذلك . ولقد كان المصرى منذ فجر التاريخ مستجيباً لبيئته ،

مستوحياً إياها ، مستلهما منها عقيدته التي كتب لبعض عناصرها الدوام على الرغم من أن مصر القديمة لم تخلف لنا ديناً منظماً مشرعاً كما خلف لنا الشرق الآسيوي القديم في دياناته السماوية . وآية ذلك أن المصري الأول نظر إلى بيئته فوجد فيها ذلك الوادي الأخضر ، حيث يجرى الماء بالحياة وتجدد الأرض بالطيبات ، وحيث يعيش ويسعى كل شيء حتى ؛ ثم وجد على الجانبين تلك الصحارى المقفرة والفيافي المعسرة ، حيث الشمس المحرقة وحيث الخوف والموت والفناء . وقد انعكست صورة ذلك كله في نفس المصري وروحه ، فاهتدى إلى فكرة الخير والشر ، واتخذ لكل منهما إلهاً . ثم دار الكفاح بين الإلهين في ذبذبة دائمة ، فانتصر الخير وإلهه «أوزيريس» حيناً ، وطفى الشر وشيطانه «سيت» حيناً آخر وتلك فيما يظهر نفس الفكرة — فكرة وجود «الله» «والشيطان» — التي تردت فيما بعد في كثير من الأديان اللاحقة التي لا يبعد أن تكون قد تأثرت من قريب أو بعيد بالفكر المصري .

وهناك عناصر أخرى لا تزال باقية من الديانة المصرية القديمة ؛ ربما كان أظهرها تلك القصة الرائعة ، قصة إيزيس وشقيقتها وزوجها أوزيريس وابنتها حورس ؛ وهم جميعاً من الآلهة . وقد حملت إيزيس بابنها حورس من أبيه أوزيريس (وبطريقة إلهية غامضة) بعد وفاة هذا الأب . ويرى بعض الباحثين من أمارات الشبه بين هذه القصة وقصة مريم العذراء وابنها المسيح عليه السلام ما يسوغ في رأيهم أن تكون القصة المصرية قد أثرت ولو بطريق غير مباشر ، في تكييف القصة المسيحية ، وذلك بعد أن انتشرت عبادة إيزيس وابنها الإله الطفل من مصر إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط وشرقه في العهد الإغريقي . وفي المهدين المسيحي والإسلامي لعبت مصر دوراً جديداً ؛ كانت فيه القاعدة التي انتشرت منها المسيحية إلى سواحل برقة ، وإلى بلاد النوبة والسودان ، وكذلك إلى الحبشة التي لا تزال ترتبط بالكنيسة القبطية ارتباطاً وثيقاً ، كما انتشرت بعض نظم المسيحية ، لاسيما نظام الرهبنة وحياة الأديار ، من مصر إلى بلاد البحر المتوسط وغرب أوروبا . ثم جاء العهد الإسلامي فانتشر الدين الجديد غرباً وجنوباً نحو شمال إفريقيا والسودان . ولعل من الطريف حقاً أن نلاحظ أن توسع العرب وانتشار الإسلام نحو شمال السودان لم يجيء من بلاد العرب عبر البحر الأحمر مباشرة ، وإنما جاء عن طريق شبه جزيرة سينا

ومصر ووادي النيل ؛ لأنها كانت الطريق الطبيعي لهجرة البدو والقبائل ،
 وللتوغل الجنسي والثقافي إلى السودان . وهذا في حد ذاته مما يزيد الرابطة
 التاريخية ويبرز الوحدة الطبيعية والبشرية بين شطري وادي النيل .
 فإذا ما تركنا الدين جانباً ، وانتقلنا إلى ميدان الفن وإشباع حاجات الذوق
 والتذوق الحسي في الانسان ، لنسوق بعض الأمثلة مما أنتجت مصر للانسانية ،
 وجدنا غير قليل من عناصر الخلود في هذه الناحية من تراث مصر الثقافي
 الاول . ومرجع الخلود هنا أيضاً أن المصري استلهم بيئته في الاهتمام إلى فنه .
 فهو قد نظر إلى بيئته الكبرى ، فوجد هذا الوادي المستقيم المنبسط يمتد سطح
 أرضه في استواء لا اعوجاج فيه ، ويقوم على جانبيه حائطان رأسيان من الحجر
 الجيري الأبيض المقطوع في زاوية قائمة ، والذي يتكون من طبقات متوازية
 بعضها فوق بعض ، في خطوط أفقية مستقيمة ؛ فإذا ما وصلنا سطح الهضبة
 امتدت الصحراء في استواء عجيب مرة أخرى ؛ فليست هناك جبال ولا تلال
 تقطع خط الأفق . ولا بد للمصري من أن يبتعد كثيراً عن جوار واديه ،
 وأن يتوغل إلى سواحل البحر الأحمر ليجد تلك الطبيعة ذات السطح المعقد
 المقطع ؛ أما في الوادي وما جاوره فالطبيعة سهلة ومكونة من مسطحات تتقاطع
 فيها الخطوط الرأسية والأفقية . وقد انعكست صورة هذه الطبيعة في ذوق
 المصري الذي قام على البساطة والسلامة وقلة التعقيد . وانعكس هذا الذوق
 بدوره في فن المصري ؛ فأرناهم يقيم المعابد والهيكل مثلأ في أشكال هندسية
 مربعة أو مستطيلة ، ويرفع جدرانها في هيئة تنسق والطبيعة التي نقل عنها ؛
 وأرناهم يقيم الهرم مثلأ في شكل هندسي ذي مسطحات بسيطة مستوية
 وأضلاع متساوية مستقيمة ، ينظر إليه الناظر فلا يرى غير هذه البساطة الرائعة
 التي تتمشى مع ما في الطبيعة المحيطة من جمال بسيط وسحر هادي وديع .
 فلنقارن بين هذه الهيكل المصرية القديمة ، أو بين هذا الهرم البسيط الرائع ،
 وبين هيكل من هيكل القرون الوسطى والعهد القوطي في أوروبا من كنائس
 وغيرها ، حيث المباني تتقاطع فيها الخطوط والمنحنيات ، وتكثر في سطحها
 الفجوات والنتوءات ، وتبرز من واجهاتها التماثيل والنقوش الكثيرة ، وتختلف
 مستوياتها في الارتفاع والانخفاض ، ويختلط فيها الظل والنور ؛ فيشير كل ذلك
 في نفس الرائي رهبة مصدرها التعقيد المحير ، وروعه مرجعها الشعور الذي

لا يكاد يستقر على شيء معين مما يراه الناظر . أما الهرم فإن سحره وروعته ورهبته تربض كلها في بساطة وجلال ووقار ، وتكن في أشكال ومسطحات هندسية بسيطة ، استطاع المصري أن يضمَّنْها فيه ، وأن يرمز بها إلى أفكار من الدين والعقيدة لا تقل في عمقها عما ترمز إليه كنيسة العهد القوطي في أوروبا .

وكذلك تمثلت بساطة الفن وسلامة الذوق في العمارة المصرية خلال العصور ، ثم في فن الرسم والتصوير . . . واحتفظ المصري بهذه الصفة كامنة في فنه على مر الزمن . حتى إذا ما جاء الاسلام ، وهو دين بساطة ، برزت قيمة هذه المزية في الفنان المصري ، وتمثلت فيما خلفه من العهد الإسلامي من عمارات ومساجد تحلِّيها رسوم عربية هندسية بدیعة لا تزال تستهويننا بحماها حتى اليوم . ومن يدري ! فقد بعث العهد الجديد في نهضتنا الحديثة روحاً جديداً في الفن المصري . وقد رأينا العالم يتجه في فن العمارة نحو البساطة والخطوط المستقيمة والواجهات المستوية والأشكال الهندسية في الرسم والتصميم وفي الزخرفة والتزيين ؛ وقد يجد الروح المصري مجالاً جديداً في هذا الاتجاه .

فإذا ما انتقلنا الآن إلى الناحية الثالثة من الثقافة وهي ناحية اللغة والأدب وجدنا المصريين أسبق الناس جميعاً إلى استنباط الكتابة . وقد عبروا عن حاجاتهم بل عن أفكارهم في صور جميلة مشتقة إلى درجة ظاهرة من البيئة المصرية ذاتها . وليس يعنيننا تتبع تاريخ الكتابة في مصر ؛ ولكن هناك رأياً يقول إن المصريين أثروا في غيرهم من أهل المشرق القريب منهم وبلاد فينيقية ، وإن الكتابة المصرية القديمة أثرت في بعض الكتابات اللاحقة عن هذا الطريق . ومهما يكن من أمر ذلك فقد أنتج المصري القديم أدباً رائعاً في لفته المصرية ، وانحدرت بعض آثار ذلك الأدب لا سيما الجانب الشعبي منه إلى العصور اللاحقة ؛ وربما كانت قصة الملاح المصري التائه أصدق مثل على ذلك ؛ إذ أنها خُلدت فيما بعد في قصة السندباد المعروفة في كثير من الآداب الشرقية القديمة والحديثة . وقد طاشت اللغة المصرية القديمة وآدابها أكثر من ثلاثة آلاف سنة ؛ وتلك حقبة طويلة من الدهر ، لا تكاد تضارعها حياة لغة أخرى من لغات التاريخ ، غير لغة أهل الصين . ومع ذلك فإن آثارها لم تمت تماماً ؛ فهي لا تزال ماثلة في بعض طرائق التعبير في حديث أهل مصر ولهجاتهم ، وفي بعض أغانيهم

وأفانصيصهم الشعبية ، وإن كانت لغة التعبير قد تغيرت وحلت العربية محل المصرية القديمة ، أو محل القبطية التي انحدرت عن المصرية القديمة .
وفي العهد الإسلامي أخذت مصر اللغة العربية عن بلاد العرب ، ولكنها لم تقنع بأن تبقى حالة على تلك البلاد من ناحية الأدب والإنتاج الأدبي ، وإنما صار لها بالتدريج أديبها المصري العربي ؛ بل صارت هي في وقت من الأوقات القوامه على لغة القرآن وآدابها ، ومركز الثقافة اللغوية والأدبية الأول في العالم الإسلامي بأسره . وهي ما زالت كذلك حتى يومنا هذا .

فاذا ما اتهبنا إلى الناحية الرابعة والأخيرة من نواحي الثقافة العامة ، وهي ناحية العقل ، وإشباع حاجات الفكر في المشاهدة والتعليل واستنباط العلوم وما يتصل بها من فنون وتطبيق عملي ، برزت لنا مساهمة مصر منذ القدم ، على الرغم من أن طبيعة الأشياء كانت تقضى كما ذكرنا بأن تكون تلك المساهمة على قدر يسير في تلك الفترة المتقدمة من التاريخ . وكان ما ساهم به المصريون القدماء من هذه الناحية منحصراً على وجه الخصوص في علوم الفلك والرياضات وبعض العلوم التطبيقية كالهندسة وما يتصل بها . وهنا أيضاً كانت الطبيعة هي المعلم الأول للمصري ، الذي لاحظ مثلاً حركات النجوم في أفلاكها ، كما لاحظ انقسام السنة إلى فصول ، فاهتدى إلى وضع تقويم يرجع عهده في رأى بعض الباحثين إلى أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد ، ويقوم على تقسيم السنة إلى أشهر على نظام يشبه التقويم القبطي ، الذي لا يزال معمولاً في الزراعة المصرية إلى يومنا الحاضر . كذلك شاهد المصري حركة الشمس ، وقسم النهار والليل إلى ساعاتهما المعروفة ؛ وساعد كل ذلك على ضبط الحياة وتوقيتها ، وهو أمر لازم من أمور المدنية ومستلزماتها الأولى .

كذلك برع المصري في علوم الحساب والرياضة ، وعبر عن عملياتها تعبيراً واضحاً ، وإن كان قد استخدم الرموز البسيطة في التعبير . ثم انتقل إلى الهندسه نظرية وفراغية وتطبيقية ؛ وعمد منذ البداية إلى الدقة في استعمال المقاييس والمعايير رغم قلة الآلات والأدوات لديه . فهو مثلاً قد تصور شكل الهرم قبل أن يبنيه ، ولا بد أنه قد رسمه لنفسه قبل أن يخرج به إلى حيز الوجود ؛ ثم هو قد قاس أبعاده في الطبيعة ، ونحت حجارتها على شكل مكعبات مستوية السطح متساوية الأبعاد إلى حد لا يتحقق إلا لمن توافرت له الدقة في العلم والعمل . . .

وتلك الدقة بعينها هي التي تمثل عنصر الخلود في العلم المصري القديم ؛ إذ لولاها ما استطاع المصري أن يخرج للناس آثاره الخالدة ؛ بل لولاها ما استطاع أن يهيئ للحياة المصرية مقوماتها المادية الأساسية ، من قياس مياه النيل وضبطها ، وشق الترع والقنوات وحساب مناسيبها إبان الفيضان ، وغير ذلك مما لم يكن ليستطاع بدونه إيصال الزراعة المصرية إلى ما وصلت إليه في ذلك الزمن السحيق .

وقد استطاعت مصر أن تحمل لواء هذه العلوم الفلكية والرياضية والهندسية وغيرها من العلوم التطبيقية وذات القيمة العملية في الحياة حتى جاء الإغريق ، فتلقوا عنها الرسالة ، وحموا المشعل بدورهم إلى أن استعادته مصر في عهد البطالسة الأول ؛ ثم انتقل منها بعد ذلك إلى أيدٍ أخرى في الشرق والغرب .

* * *

تلك في إيجاز قصة مصر ومكانتها في تاريخ الثقافة البشرية العامة ، ومساهمتها بالإنتاج حيناً ، والنقل والإذاعة حيناً آخر . وهي قصة لا تخلو من كثير من الروعة لمن شاء أن يعمن في دراستها ويدقق النظر في تفصيلاتها . بل هي تكاد تكون في جللتها صورة حية من تاريخ الإنسانية في كفاحها الطويل نحو ثقافة عالمية ، تقوم على أساس الأخذ والعطاء ، بين الشعوب في حرية وسخاء . ولقد كانت مصر أم المدينة وأم الثقافة في كثير من عناصرها وأوانها ؛ وبقيت مصر على الزمن أمة ذات مدنية وحضارة بعد أن مات غيرها من الأمم . فأين منها بلاد سومر و بابل وآشور ، حيث قامت مدنية زراعية عريقة ، ولكنها اندثرت ، فبارت أرضها وجف زرعها وعمتها البوار والخراب ، إلى أن تجددت في بعض عصورها اللاحقة ؛ على حين أن أرض مصر بقيت تزرع وتؤتي أكلها في كل عام خلال آلاف السنين . وأين منها كذلك — ورغم ما قد يبدو في ظاهر الحديث من إسراف — بلاد الإغريق حيث ازدهرت الحضارة والثقافة ازدهاراً هائلاً ولكن خلال قرون معدودات ، ماتت بعدها في تلك البلاد موتاً . ولولا أن قبض الله لها مصر لعفى عليها الزمن ، وجرى على كثير من أصولها النسيان . وأين منها بلاد الهند ، حيث قام خليط من الحضارات والثقافات ، شارك بعضها بعضاً في قدر معين من العناصر المشتركة ، ولكنها بقيت على الزمن غير متسقة ، بل متفاوتة في مراحل التقدم تفاوتاً لم يسح للهند معه أن

نخرج للناس تامة الوحدة في أي دور من أدوار التاريخ . ثم أين منها بلاد الصين ، وهي عريقة في المدنية والثقافة ، مستمرة على الزمن حتى يومنا هذا ؛ ولكنها مع ذلك ورغم ضخامتها واتساع مساحتها ، لم تكن إلا لنفسها وما جاورها وأحاط بها من بلاد ؛ فهي لم تساهم بشيء يذكر في خلق ثقافة عالمية . بل أين منها بلاد الغرب ذاتها ، وتاريخها الثقافي لا يعدو فصلاً قصيراً من كتاب الزمن ١ .

لقد أنتجت مصر كثيراً في تاريخها الطويل ، ومنحت العالم كثيراً من نتاجها الطيب ، وكانت كريمة في ذلك إلى أقصى حدود الطاقة ؛ بل إنها وهبت للعالم أرضها وموقعها الجغرافي الفريد ، فربطت بين أجزائه ، وقربت بين ماضيها وحاضرها ؛ وأصابها من وراء ذلك بعض الخير ، أو إن شئت فقل أصابها خير كثير في بعض العهود ؛ ولكنها قاست من وراء ذلك في كثير من الأحيان . ولعل في اختلاف تاريخنا السياسي بعد عهد الإسكندر عنه في العهد الفرعوني ما يشهد بما حدث من تغيير بالغ ؛ إذ لم يعد أمر هذا التاريخ وتوجيهه مقصوراً على أهل الوادي وظروفهم المحلية ، وإنما اتصل كذلك بمسائل كثيرة « عالمية » لا دخل لمصر فيها ؛ وأفلت بذلك زمام التاريخ من أيدي مصر وأبنائها إلى أيدي كثيرة امتدت إلينا من أدنى الأرض حيناً ومن أقصاها حيناً آخر ، وساهمت في توجيه تاريخنا السياسي بقسط كبير .

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر ، حتى في عهود ضعفها السياسي ، أن تقوم على تراث العالم من ثقافات التاريخ القديم والوسيط شرقية وغربية ، وأن تحفظ كثيراً من عناصر تلك الثقافات لتنفيذ منها الإنسانية في أجيالها الثقافية .

وبعد ، فأغلب الظن أننا نعيش الآن في فترة تطور من تاريخ الثقافة البشرية والاتصالات الثقافية العامة . وسواء أدرك العالم حقيقة ذلك أم لم يدرك فإن رسالة مصر في هذا الطور الخطير لن تقل عما اضطلعت به من رسالات مماثلة في الماضي . وسواء أراد المصريون أم لم يريدوا — وهم يريدون فيما يبدو من ظاهر الأمر — فإن بلادهم ستكون همزة الوصل بين الشرق والغرب في هذا الجيل والأجيال القادمة . ومن الخير لمصر وللعالم أن يُمكنَ لها في أداء رسالتها والاضطلاع بواجبها على خير وجه وأكمله . ولا بد لذلك من أن يتوافر شرطان أساسيان .

فأما الأول فإن يدرك القائمون على شؤون الثقافة في مصر خطورة هذا الدور الذي فرضه علينا موقعنا الجغرافي وتاريخنا الطويل في شؤون الثقافة العالمية .

ولن تكون مصر جديرة بموقعها في قلب العالم إذا هي قنعت بأن تكون مجرد « طريق » تمر فيه تيارات الثقافة بين الشرق والغرب والشرق « دون توقف » ؛ ولن تكون خليفة بماضيتها الرائع ولا حقيقة بأن تتبوأ مكانها في عالم المستقبل كما تبوأته في عالم الماضي إذا هي لم تعمل لأن تكون « مركز اتصال » و « قاعدة » يلتقى عندها الشرق والغرب ، وتكون هي واسطة التعارف . ومصر لن تبلغ ذلك حتى تبدأ بنفسها ، فتأخذ من ثقافة الغرب كل ما تستطيع دون أن تحس حرجاً أو تستشعر مركب نقص ، ثم تحيي من تراثها القديم كل ما تستطيع إحياءه من ثقافة مصر الفرعونية والبطلمسية والعربية الإسلامية جميعاً ؛ ففيها كلها من عناصر الثروة ما هو جدير بالبعث والحياة . . . وفي هذا الجمع بين القديم والجديد وبين المصري والشرق والغربي من ألوان الثقافة ما ينبغي أن يساهم فيه أكبر عدد ممكن من المصريين ؛ فنحن في عصر لم يعد يحتمل أن ينحصر بالثقافة فريق من أهل مصر دون فريق . وكلما كثر المساهمون من المصريين في خلق هذا اللون الجديد من الثقافة المصرية وتكليفه زاد الاحتمال في أن يقيض الله لمصر من أبنائها عدداً أوفر ممن يحملون لواء الثقافة العليا ويساهمون بالخلق والابتكار ، فيخرجون للعالم الشرق والغربي على السواء ثمرات جديدة من الفكر ، تكون عنوان مساهمة مصر الناهضة في إنماء الثقافة العالمية الجديدة .

وأما الشرط الثاني الذي ينبغي أن يتوافر قبل أن يمكن لمصر في قضاء واجبها وأداء رسالتها نحو العالم ، فإن يدرك هذا العالم خطورة ما تستطيع مصر أن تؤديه في تعريف الشرق والغرب وتعريف الغرب بالشرق ؛ وهي البلد الذي عرف الاثنين ، واحنك بهما منذ قرون وقرون ؛ بل هي ربما كانت البلد الوحيد الذي يستطيع كل من الشرق والغرب أن يجد في ثقافته وتراثه الثقافي قليلاً أو كثيراً مما يعرف ومما يطمئن إليه . وليس من شك في أن العالم بحاجة إلى أن تتوثق الصلات فيه بين الشرق والغرب ، وأن تقوم على أساس من التقارب الفكري والثقافي . ولا يكاد بلد يستطيع أن يؤدي في هذا السبيل ما تستطيع أن تؤدي مصر . ولكن من حق مصر على العالم في الشرق والغرب جميعاً أن تلتقى العون والتقدير فيما هي مستعدة بل راغبة في أن تضطلع به . ولن يكون من صالح الإنسانية أن يؤدي ضعف مصر واضطرابها السياسي إلى إضعاف جهودها من ناحية الثقافة والتثقيف ، أو أن يستمر ذلك الضعف والاضطراب

فتمتصرف جهود هذه الأمة إلى ما لا يخدم إحياء الثقافة ونشر العلم والمعرفة .
ولقد حدث خلال القرن الماضي وهذا القرن الذي نعيش فيه أن عرف العالم
المتمدن لبلاد اليونان ما سبقت به من فضل في تاريخ المدنية والحضارة ، فذكر
لها ذلك في جهادها السياسي والقومي العام . . . وما أحراره أن يعرف اليوم
وأن يذكر ما سبقت به مصر إلى بلاد اليونان وإلى البشرية جمعاء من فضل
سبقت أثره شاهداً على الزمن ا

سليمانه ضيف